حوارات

«حقيبة» علي سعيد: شغف المحادثات

يزن الحاج

هل تبقّى مجال للحوار في زمن الإقصاء؟ بل هل ثمة فسحة لطرح الأسئلة أساساً؟ وفي حال وجوده، ما نسبة الحوارات التي تجاوزت مرحلة الثرثرة، بخاصة في الوسط الثقافيّ؟ تتلاحق هذه التساؤلات وتتداخل يومياً، كلما تعثّرنا بـ «حوار» مع كاتب أو فنان أو مفكر. ولكن الصحافي السعوديّ علي سعيد لا يبدو مكترثاً بإعادة هذه الأسئلة المكرورة، بل يسعى عبر حواراته الصحافيّة إلى طرح أسئلة غير مسبوقة، حتى مع الكتّاب والفنانين الذين يبدو مجرد وجودهم تكراراً بحدّ ذاته. يأتينا كتابه «الحقيبة الجلديّة» (دار «أثر») ليضم «ما هو أوسع من الحوار بالمعنى الصحافيّ المعتاد؛ ثمة محاولة لإعادة الحوار إلى أصله الفني - «الديالوغ» - كجزء أصيل من أجزاء القصة». وما الأدوات هنا؟ كاميرا ومسجّل وحقيبة جلديّة وحياة كاملة من القراءة. وهذا التفصيل الأخير هو ما يميّز سعيد. لا يمكن أن يجري حواراً ما لم يجهّز «عتاده» الكامل.

طوال عشر سنوات (2005-2015)، أجرى سعيد عشرات الحوارات، ولكن نقطة التفرّد أنّه لم ينشرها جميعها، إذ اكتفى بـ 13 حواراً «تولّدت من روح الحكايا، التي كان محرّكها الأول الحدث أو الواقعة أو الدراما»، بحيث تنوعت مشارب المبدعين فيها، بين النحت والشعر والرواية والفكر والتاريخ... والقراءة. وتنوّعتْ أيضاً - من دون قصد - جنسيات المبدعين من المشرق إلى المغرب. الأهم هنا هو خلوّ الكتاب من التواضع الزائف، أكان لدى المُحاوِر أو ضيوفه. لا فنّ حقيقياً بوجود قناع التواضع. الثقة هي مفتاح الإبداع. وهنا تتبدّى الثقة بشدّة في أسئلة سعيد واختياره لضيوفه وجرأته في طرح الأسئلة الإشكاليّة، وتبرّمه بالإجابات التقليديّة أو المتحفّظة. وبوجود هذه الثقة والجرأة، سنكون أمام قضايا إشكاليّة تحرّك مستنقع الثقافة الآسن، وتكون بمثابة ترياق لآفة النسيان.

ليس مصادفة أن تبدأ الحوارات بموت مبدع وتنتهي بموت مبدع آخر. ربما لأنّ الموت - مع أنّه كاد يصبح مستهلَكاً - بات المحرّض الوحيد لنا اليوم كي نحكي. وفعل الحكي والهمس وفسحة الصمت بينهما يشكّل مقاومةً بحد ذاتها اليوم. مَنْ يتذكّر النحات العراقيّ باسم حمد؟ مَنْ يتذكّر مجسّم «ناجين» الذي شغل مكان تمثال صدام حسين؟ كلّ ما كان يحاول حمد فعله هو وضع الأسرة محلّ الدكتاتور، ولكنّ ليل العسكرة الطويل أبى إلا أن يستبدل الأسرة بنصب للجنديّ المجهول. لا مكان للمدنيّة في عراق الأمس واليوم (وغداً ربما). أما النحت فكان ولا يزال «كفراً» قبل داعش وبعدها. لا مكان لتمثال يكرّم أطفالاً نسفتهم الحرب والتفجيرات، لأنّ هويّة الإنسان لا تتكرّس إلا بهذه التفاصيل الصغيرة، وتكرُّسها خطرٌ على أهل السلطة، لذا يكون النسف هو الحل بحيث «تشعر بالضبط وكأنّ أحداً يمسك بهويتك ويمسح صورتك عنها» كما يقول حمد في حواره الأخير. فيكمل الروائيّ علي بدر الجملة المبتورة السابقة حين يصف إخراجه ملابسه العسكريّة القديمة وذهابه إلى الحرب مجدداً، فتكتمل صورة العراق الجريح أمامنا. لا مكان للإبداع في ظلّ العسكرة.

جرأة في طرح الأسئلة الإشكاليّة، وتبرّم من الإجابات التقليديّة أو المتحفّظة

الهويّة همّ إبداعيّ أزليّ. نجد هذا واضحاً لدى المبدعين الحقيقيين. فتخلخل صورة الهويّة الوطنيّة في سوريا سيدفع أدونيس إلى البقاء في المنفى، بصرف النظر عن اتفاقنا معه في هذا أم لا. وجرح الهويّة يسكن محمد أركون وكتبه التي تشرّح العقل الدينيّ بلا هوادة، وأصالة الهويّة في زمن ما بعد الحداثة وما بعد بعدها تدفع نصر أبو زيد إلى فضح أنصاف المفكّرين وأرباع المثقفين حين يؤكد رفضه التخلّي عن جنسيته المصرية رغم الإغراءات الكبيرة، والأهم التزامه بالكتابة بلغته، فاللغة جوهر الهويّة. ليس بعيداً من هذه الهموم، يتابع القارئ رحلة البحث عن الإبداع في زمن شذرات فيسبوك وتويتر. إذ يشير ألبرتو مانغويل إلى أنّ عصر السرعة هذا لم يساعد القراء بقدر ما دمّرهم حيث تقدّم محركات البحث ومواقع التواصل وجبات سريعة واقتباسات بحيث «يخلق نوعاً من نفاد الصبر الثقافي، فيجعل القارئ يحس بصعوبة أن يقضي وقتاً طويلاً في قراءة نص بعينه»، ولذا ينفذ مانغويل إضرابه على طريقته بالابتعاد ما أمكنه عن التكنولوجيا الحديثة وإعادة قراءة الكتب التي سبق له قراءتها عشرات المرات. وعصر السرعة هذا نفسه هو ما يخلق أوهاماً كبرى لدى الكتّاب الجدد إذ يسارعون إلى نشر كلّ ما يكتبون، «فيقرأ القرّاء تجارب الكاتب لسنوات طويلة دون العثور على الشعر في غالب الأحيان لأنهم يقرؤون تلك المحاولات التي بقينا سنوات ونحن نرميها في سلال المهملات»، كما يشير الشاعر قاسم حداد. ويتّحد وهم السرعة مع وهم الحداثة فيغيّر الكتّاب جلودهم القديمة ويسارعون إلى التجريب لأجل التجريب، وتشظّي الحكاية لأجل التشظّي، بحيث تبدو تجربة علي بدر مغايرة تماماً، حين يشير إلى أنّ التجريب لا ينحصر - كما فهم معظم الكتّاب - في هدم التسلسل الحكائيّ، بل يكمن التحدي في المحافظة على التسلسل وفتح التجريب على مساحات السرد المتعددة. شغف الحكي، شغف البوح، شغف الحوار. يتبدّى هذا الشغف بتجلّياته في المقدمات التي كتبها سعيد لكل حوار من الحوارات، بحيث تكاد تكون نصوصاً مستقلة بذاتها، تستعير الخيوط من سجّادة الحوار، وتحيك سجّادة أخرى متميّزة يبدو فيها الضيوف وكأنهم يتحاورون في ما بينهم. يضعنا علي سعيد في زمان الحوار ومكانه وحدثه فنحس بلهيب الكلمات وهي تحترق جيئة وذهاباً بين المتحاورين. ومع إدراكه أنّ طبيعة الحوار الصحافيّ في جريدة يوميّة تتنافى مع طبيعة الكتاب، يعيد سعيد تحرير الحوارات والمقدّمات بحيث تبدو جميعها وكأنها مكتوبة خصيصاً للكتاب، بحيث تصل إلينا طازجة رغم مسافات المكان والزمان.

استقصاء

«غوموررا» رحلة إلى سدوم وعمورة إيطاليا

عبد الرحمن جاسم

تختصر تجربة الصحافي الإيطالي الاستقصائي روبرتو سافيانو (1979) فكرة الصحافة الاستقصائية عموماً؛ إذ تتمثل مهمّة تلك الصحافة في الكشف عما لا يعرفه الناس، ويجهد «أصحاب الشأن» لإخفائه. وسواء كان أصحاب الشأن المعنيون موظفين حكوميين، وأثرياء، أو حتى رجال عصابات، فإن الصحافي الاستقصائي ـ غير الموجّه من قبل أحد ـ يسير كالسهم في سبيل العدالة وكشف الحقيقة. لم يكن كثيرون في العالم بأسره يعرفون شيئاً عن عصابات جنوب إيطاليا (وتحديداً مدينة نابولي) «المخيفة» والمعروفة محلياً باسم «كامورا». لقد كانوا، لأسباب عدة، يتناولون «أختها» الأشهر عالمياً «المافيا» القادمة من الجزيرة الصقلّية، إذ لطالما كانت «كامورا» قادرةً على إخفاء آثارها وإسكات من يتناولها بحرف. من هنا كان كتاب «غوموررا» لروبرتو سافيانو الكتاب الوحيد ربما الذي استطاع تعرية «كامورا» إلى هذا الحد وتقديمها إلى العالم. يصدر الكتاب بنسخته العربية («كلمة»، و«الدار العربية للعلوم ناشرون» ـ ترجمة مها عز الدين) بعد عشر سنوات على صدوره بلغته الأمّ (2006) وتحوّله إلى فيلم للمخرج ماتيو غاروني (2008) ثم إلى مسلسل (2014، هو الآن في جزئه الثاني). وبالرغم من تأخر صدور ترجمته العربية، فلا ريب أنّ مجرّد نشره هو جهد يجب الإشادة به، نظراً إلى أهمية الكتاب، فضلاً عن مرجعيته ونوعه المفقود في المكتبة العربية.

إثر نشره للكتاب، عانى روبرتو سافيانو، إذ تحوّل بين ليلةٍ وضحاها إلى رجل مطارد، حيث وضعته المافيا النابوليتانية على رأس قائمة مطلوبيها، وتعرّض مراراً لمحاولات اغتيال أجبرته منذ عام 2008 على مغادرة بلاده إيطاليا. إذاً، لهذا الحد يمكن لكتاب واحد أن يجعل من شخصٍ ما مُخيفاً ومرعباً لقوى أمرٍ واقع. بحُسب الكتاب، تبدو عصاباتُ «كامورا» مسيطرةً على كل شيء في مقاطعة كمبانيا وعاصمتها مدينة نابولي بشكلٍ كلي، ما منع إمكانية الحديث عنْ نشاطاتها. يضاف إلى هذا السبب، التواطؤ الشعبي والرسمي معها، ما «أغلق كل السبل». هكذا جاء كتاب سافيانو ليغيّر ذلك الواقع بأكمله، كما فعلت الصحافية الاستقصائية الشهيدة فيرونيكا غورين في إيرلندا سابقاً بتعريتها المافيا الإيرلندية. دفع هذا بالحكومة الإيطالية إلى اتخاذ بعض الخطوات، إذ أصرت على إنشاء وحدات متخصصة في مكافحة «كامورا» وأنشطتها، وخصصت رجال شرطة لحماية الصحافي الإيطالي المهدد بالموت. استمد سافيانو عنوان كتابه من «التوراة»، حيث تشير «غوموررا» إلى سدوم وعمورة المدينتين اللتين خسفت بهما الأرض لفسادهما، في الوقت عينه تتشابه الكلمة مع لفظة «كامورا» (تعني: «كا» أي زعيم و«مورا» أي شارع).

يتناول المؤلف الذي كتب بأسلوب روائي، حكاية شديدة الواقعية عاشها الكاتب عندما غاص بعمق، حتى وصل إلى تلك التفاصيل الحقيقية بمعظمها التي قرأناها في الكتاب، ناهيك بالقليل من البعد الدرامي. يشرح الكتاب مثلاً كيف تختلف عصابات «كامورا» الموجودة منذ القرن السادس عشر عن مثيلتها المافيا الصقلية، إذ تمتد «العائلة» الصقلية عمودياً (أي القائد/ الدون في الأعلى، ثم نزولاً ناحية الأعضاء) فيما تعشش «كامورا» أفقياً (أي تتحرك كل «عشيرة»/ clan وحدها ضمن إطار اتفاقي تفاهمي). يكمن الاختلاف الكبير أيضاً بين «العصابتين» في أنّ «كامورا» تعطي دوراً أكبر للنساء، فيمكن للمرأة أن تكون «زعيمة عشيرة» على عكس الصقليين الذين قلما يعطون النساء دوراً مماثلاً. تكثر في الكتاب الأسماء: الشوارع، الأشخاص، الأماكن، كما تكثر التواريخ، وقد يجد القارئ في لحظةٍ ما أنّه أمام «فهرس» و«أطلس» وكتاب تاريخي في آن. هذه التقنية استخدمها لاحقاً الكاتب الأميركي المعروف دان براون في «جحيم دانتي»، و«ملائكة وشياطين» ولو بدرجةٍ أقل. التقنية الاستقصائية التي تقارب الرواية تبدو ظاهرة، فالاهتمام بالإخبار والكشف عن الوقائع يأتي على حساب «سرد» الحكاية، رغم أن سافيانو بقي ممسكاً بلعبة «القصّة» حيث ظلت شخوصه تدور في الإطار الحكائي نفسه. في أحد المقاطع، يشير سافيانو: «لدى الجميع في سيكونديغليانو، حتى الأطفال الصغار منهم، فكرة شديدة الوضوح عن كيفية الموت، وأفضل وسيلة لذلك». يورد هنا نقاشاً بين صبيين (في الرابعة عشرة من عمرهما) أمام جثة امرأة قتلت بطلقةٍ في الرأس: «أريد أن أموت كهذه السنيورة (السيدة)، بانغ بانغ في الرأس، وينتهي كل شيء»، يناقش سافيانو الصبي سائلاً لماذا الرأس؟ أليست الطلقة في الصدر/ القلب أفضل؟ لكن الصبي الخبير أكثر من الكاتب في الألم يؤكد: «كلا، ففي الصدر تؤلم أكثر بكثير، كما سيستلزمك عشر دقائق حتى تموت، فعلى رئتيك أن تمتلئا دماً... الإصابة في الرأس هي الأفضل لأنك لن تبول على نفسك... ولن تتنفض وتتلوى على الأرض لنصف ساعة». لكن السؤال الأبرز لا يطرحه سافيانو للصبي، بل يتركه للرواية: «لِمَ على صبي في مقتبل العمر أن يعرف كل هذا عن الموت؟». أمر يعود لإيضاحه حين يشير إلى أنّ قتلة «السنيورة/ السيدة» أصغرهم في السادسة عشرة وأكبرهم في العشرين. في المحصّلة، أنجز سافيانو كتاباً ممتعاً، ومهماً ليس لمن يرغب في التعرّف إلى عصاباتٍ إجرامية فحسب، بل لمن يرى في الصحافة/ الإعلام مهنةً حرفية قادرةً على كشف الحقائق.

يظهر أوجه الاختلاف بين «كامورا» في نابولي ومثيلتها في صقلية